

بهم قاست الدنيا خطوباً جسيمةً فأصبح ذو الرائي الحصيف بهم يزري
 لن فاني الموت الزؤامُ فانهُ لحير من الإثراء مع وصة الوزر
 فسادتهُ ذاك الحيث ووجههُ عليه سمات النيطر والحدق والشر
 فلم يكثر ذاك القتي لوعيدِهِ وعَدَّ بلالاً الدهر من نعمِ الدهر
 لذلك لم تلبث يدُ الله أن سَحَتْ عليه بالآه تشدُّ عن الحصر
 فأقبلت الدنيا عليه بيسرها فبات اليك السعد في حُلل الوفر
 وعادَ الى اوطانهِ وشعارهُ فضائلُ تكسو المرء برداً من الفخر
 فلما رأت تلك الأُمينةُ نجلها على خير حالٍ أهرقت دُمعة البشر
 وخرَّت على الأقدام تحمدُ ربها على نعمٍ جلى تجوزُ مدى الشكر
 فيا قومُ ما احلى الحياة إذا انطلوت وقد رُضعت أربادها بجلى الطهر
 وما ابهج الدنيا إذا زانها التقى وما أجمل الآداب بالرجل المثري

النَّصْرَانِيَّةُ وَأَدَابُهَا

بين
عرب الجاهلية

للأب لويس شيخو اليسوعي
النصرانية بين عرب شامي سورية (تابع)

شرح معان قال ياقوت (٥٧١: ٤) «هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاها
 الحجاز من نواحي البلقاء» وكان أهلها نصارى تحت حكم الروم والمالك عليها عند ظهور
 الاسلام فروى بن ابي عامر شيخ بني جذام النصارى. ويقرب معان عند موتة التي
 دعاها ثاوفانوس المارخ (Théophane. I. ٥١٥. éd. Bonn) باسم (Modous)
 حدثت رقعة سنة ٨ للهجرة بين جيوش المسلمين تحت امرة زيد بن حارثة وجعفر
 ابن ابي طالب وعبدالله بن رواحة و (بين) جيوش الروم تحت قيادة ثاودورس

المعروف بالنائب وقد روى مؤرخو العرب أن عدد الروم كان مئة ألف ومعهم من عرب النصارى مئة ألف آخرون (١) فكان الانتصار للروم وهُزم المسلمون وقُتل قادتهم. لكنهم عادوا بعد ذلك بسنة قتلوا الروم وفتحوا معان واستولوا على جهات البلقاء وقيل أن فروة صاحب معان أسلم

﴿ المدينة ﴾ كان اسمها في الجاهلية يثرب دُعيت بذلك على ما قيل باسم بانيها أحد أبناء آرام وفي تقاليد العرب أن أول من سكنها العالقة ثم هاجر إليها اليهود في أزمنة مختلفة قبل المسيح على عهد موسى ويشوع بن نون وداود ثم في زمن خراب اورشليم وهيكلها على يد الآشوريين ثم بعد المسيح عند فتح الرومان للقدس الشريف فخرج منهم إلى يثرب بنو قريظة والنضير وبهذل وزلوا وأدين اسمها بطحان ومهزور (٢) وبشوا هناك الآطام أي المنازل المحصنة

وكانت ديانة هذه القبائل اليهودية كما هو بديهي. غير أنهم اختلطوا بقبائل أخرى عربية كان البعض يسكن في جوار يثرب والبعض الآخر هاجر إليها من اليمن بعد تفرق أهله سوا. كان بسبب سيل العرم كما روى العرب أو لعل أخرى وما لا سيل إلى انكساره أن النصرانية دخلت يثرب بعد السيد المسيح بقليل كما رأيت في ما نقلناه عن دعوة الرسل في الحجاز ووجود قبر واحد منهم في جبل العتيق من ناحية المدينة على ما نقله الطبري

وليس من المستبعد أن بين القبائل اليهودية المهاجرة من اورشليم قوم عرفوا النصرانية ودانوا بها ولاسيما أولئك المتقبرين الذين سبق خروجهم فتح حاضرة بلادهم فالتجأوا إلى المدن الواقعة ما وراء الأردن. فأنهم اذ رأوا ما حل بالمدينة المقدسة من الدمار توغلوا في بلاد العرب وسكنوا في جهاتها الداخلية والظاهر أن بعض تلك البدع المعروفة بالبدع اليهودية النصرانية (sectes)

(١) هكذا روى العرب وظلم روى الريان كالياس التميمي اطلب تاريخ اليموني (٦٦: ٢) وجمع البلدان لياقوت (٦٨٨: ٩ و ٥٧١) ثم de Goeje: Mémoires d'Hist. et de Géogr. Orientales, 2 éd., 1900, p. 6-9

(٢) راجع كتاب الاغاني (١٩: ٦٥) وروايات الاغاني (١: ٥-١٠) راجع أيضاً مجلة الدروس اليهودية (10, X, 167 et VII, Revue des Etudes Juives)

judéo-chrétiennes) شاعت خصوصاً في نواحي العرب كشيخ الناصريين (Nazarcens) والابيونيين (Ebionites) والكسانيين (Elkésaites) وقد ذكرهم الكتبة الكنديون في القرون الاولى كلوسابيوس المورخ (١) واورديجانس المعلم (٢) ويوستينوس الشهيد (٣) والقديس ابيفانيوس (٤) في تلويع المرطقات والقديس هيرونيوس في كتاب الاعلام (٥) وتاردوريطس (٦) وصاحب الفلسفات (٧) وذكروا علاقتهم مع المسيحيين

واستشهدوا بما كان لديهم من الآثار النصرانية. وقد وجد الاثريون في زماننا بعض تلك الآثار المكتوبة بالحرف السرياني الفلسطيني ونشروها بينها فصول انجيلية وطقوس ورتب بيعة

وبعض هذه البدع التي انتشرت في جهات العرب بالغ اصحابها في اضاليهم فبند النصارى مزاعمهم وقبحوها كالقطاريين (Collyridiens) الذين كانوا يباليون في عبادة مريم العذراء. فيقدمون لها نوعاً من القرابين اخضها اقراص المجين والقطار وقد ذكرهم القديس ابيفانيوس في كتاب المرطقات (٨) ولعل هؤلاء البدعين هم الذين دعاهم ابن بطريق (٩) بالمرية والبرانية فافادنا انهم كانوا يقولون " ان المسيح وائمه الهان من دون الله ". وقد وصفهم بذلك ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح ردعاهم بالريائيين او المريانية. وعلى هذا البناء شرح مفتيرو القرآن قوله : في سورة المائدة " اتخذوني وائمي الهين " وقالوا في شرح قوله في سورة النساء " ولا تقولوا

(١) اطلب تاريخه (Eusèbe, H. E., IV, 17 et 22)

(٢) اطلب رده على قلسوس (Origenes c. Celsus, II, 3 et Rom. III, in Gen. n° 5)

(٣) اطلب مذاكراته (Justini Dialog., c. IV, LXIII et LXXX)

(٤) كتاب المرطقات (Epiphan., Hæres. XXIX, 7, 9, 15, et XXX, 15-19)

(٥) اطلب (Hieron. De situ et nominibus, Migne, XXIII, p. 888)

(٦) كتابه في خرافات الامم (Theodoret, fabul. I, et II, 18)

(٧) اطلب (Philosophoumena, VII, 12, IX, 13, X, 17 et 29)

(٨) اطلب (Epiphan., Hæres. 10)

(٩) راجع طبعنا (١٢٦)

ثلاثة « اي لا تقولوا الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم (كذا ورد في شرح البيضاوي والزمخشري وغيرهما)

وقام غيرهم في انحاء العرب وتطرقوا على عكس ذلك فانكروا على المنداء مريم دواها في البتولية فسئوهم لذلك بالمعادين لمريم (Antidicomarianites) وذكرهم القديس ايفانيوس في كتاب البدع (١)

وروى القديس ايلاريوس في رسالته الى قسطنطين الملك (٢) ان فرعاً من اشياع اريوس ظهروا في جهات العرب وهو يدعوهم افاقين باسم افاقيس زعيمهم كانوا يذهبون الى ان السيد المسيح ليس هو ابن الله لزمعهم ان من قال ذلك جعل الله زوجة فخلطوا بين الولادة الجسدية والولادة الالهية الروحية الازلية المثبتة في الكتب المنزلة

وقد ذكر حضرة الاب انتاس الكرملي في احدى المقالات المنشورة في المشرق (٦٠:٦) بدعة أخرى وجد منها بقايا في العراق تعرف بالدائدة او الداوديين يعظم اصحابها داود النبي ويكرمون السيد المسيح لكنهم يحملونه دون رتبة داود فكل هذه البدع وغيرها التي شاعت خصوصاً بين القبائل اليهودية المنتصرة الساكنة في حدود الشام والحجاز شوّهت المعتقدات النصرانية الصحيحة في تلك البلاد وبقي الامر على ذلك حتى قدمت الى يثرب بطون من عرب اليمن كبني الحارث ابن بهثة وبني شظية من غسان ولاسيما بني الاوس والخزرج من الازد الذين لحقوا بها بعد سيل العرم. لكنهم اقاموا فيها كما روى صاحب الاغانى (١٥:١١) في جهد وضيق الماش يرتقون من الزراعة وكانت الاموال لليهود حتى قام بينهم في اواسط القرن السادس للمسيح احد شيوخهم وهو مالك بن عجلان فأوفد الى ملك في الشام من ملوك غسان يدعى ابا جينة فاستجده على يهود يثرب فأمنجده واولعها باشراف اليهود حتى ذلوا وحار الامر الى الاوس والخزرج منذ ذلك الحين الى ظهور الاسلام ومنهم كان الانصار. وقد وقعت بين الاوس والخزرج حروب رواها صاحب الاغانى (٢: ١٦٧ - ١٧٠) لا حاجة الى ذكرها

(١) اطلب (Epiph., Hæres. 78)

(٢) اطلب مجموعة من X (Migne, PP. LL.,)

أما دين الاوس والحِمْيَر وبقيّة القبائل غير اليهودية التي كانت في يثرب وجهاتها فيظهر انه كان في أوّل امرها الشرك وانّها كانت تعبد الناة كما روى الشهرستاني في كتاب الملل والنحل (ص ١٣٤ من طبعة لندن) لكنّها عدلت بعد ذلك الى النصرانية. ولنا على الامر أدلّة نزيها هنا عن مصادر موثوق بها قد رأيت في أوّل هذا الباب أنّ دُعاة الدين المسيحي دخلوا بلاد الحجاز منذ قرون النصرانية الاولى بل روى أوّل مؤرخي الاسلام ابو جريز الطبري تقليداً عن اهل المدينة ذكروا فيه وجود قبر لاهد رسل السيد المسيح في جبل العتيق المجاور لبلدهم

ومن الأدلّة على نصرانية عرب المدينة ان الاوس والحِمْيَر ينتسبون الى الحارث ابن ثعلبة فيرتقي ذريتهم الى بني غسان. ونصرانية غسان ثابتة لا يشك فيها الا من كابر الحق كما رأيت افليس من الصواب أن يقال أنّ الاوس والحِمْيَر دانوا بديانة غسان. وزد على ذلك أنّ أباً جسيّة الصّافي ملك الشام المعروف بنصرانيته ما كان لينصر الاوس والحِمْيَر على يهود المدينة كما مرّ بك لولا علمهم انهم يديثون بدينه ولنا على ذلك برهان آخر اقرب وادل وهو الاسم المطلق على اهل مدينة يثرب الذين كانوا يدعون باهل الكتاب. قال الشهرستاني في الملل والنحل (ص ١٦٢ من طبعة لندن): «الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم اهل الكتاب والاميون والانبي من لا يعرف الكتابة فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والاميون بمكة» فينتج عن قوله هذا أنّ اهل الديانة كانوا منقسمين قسمين قسم يهودي كتمريظة والنضير وقسم نصراني وهم عرب الاوس والحِمْيَر وقضاة الذين كانوا يسكنون المدينة

وجاء في التقويم القديم للكنيسة الكلدانية الذي نشره الحوري بطرس عزيز سنة ١٩٠٩ (ص ٨) ان الناصرة «اقاموا مطروبوليطاً في يثرب وأنّه كان فيها ثلاث كنائس على اسم ابراهيم الخليل وأيوب الصديق وموسى الكليم» وهي رواية وجدناها في غير هذا التقويم ثم في تقويم آخر مخطوط مثله لاهد اهل الموصل والله اعلم بصحتها على أنّ وجود النصارى في المدينة قبل الاسلام وفي اوائل ظهوره ان الامر الذي لا يمكن نكرانها. لأنّ النصارى كانوا بلغوا اقاصي تخوم العرب فما قولك بالبلاد المجاورة لمالك الروم. وهذا ما اقرب به المستشرقون في كتبهم الحديثة. قال

أحد انتهم العلامة فلها وزن (١: ٥) « أن محمدًا أوجد الطريق ممهدة في المدينة بواسطة اليهودية والنصرانية لأن هناك كان يهود كثيرون ثم لوقوع المدينة على حدود الرومان واليونان وتحت نفوذ النصارى الآراميين ». ومثله قال هرتويغ دندبورغ الموسوي من اساتذة اللغات الشرقية في باريس التوفي سنة ١٩١٠: « كان للنصرانية تبعة متعددون في جزيرة العرب فكانت مالكة على شملها بدو بني الحيرة وغان

وعلى وسطها في المدينة وعلى جنوبها باستقنيات اليمن (٢) »
وبني النصارى في يثرب حتى بعد وفاة نبي الاسلام كما يدل عليه قول حصان ابن ثابت في داليته التي رثى بها محمدًا (طبعة ليدن ١٩٥٩, p. ٢٩ Hirschfeld) :
« فرحت نصارى يثرب ووجدوها »

ولعل النصارى واليهود بقوا في المدينة الى عهد عمر بن الخطاب الذي اخرج الفريقين من جزيرة العرب استنادًا الى ما روي في الحديث: « لاخرجن النصارى واليهود من جزيرة العرب »

ولما اراد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨٨ (٧٠٧ م) ان يجدد عمارة المسجد الكبير المعروف بمسجد النبي في المدينة كان بُنائته من نصارى الروم والقبط كما روى المؤرخون. واخبر الطبري (٢: ١١٧) « أن ملك الروم بعث اليه بمائة عامل ومائة الف مثقال ذهب واربعين حملاً من الفسيفساء فبنوا المسجد وجعلوا طوله مائتي ذراع في مثلها ». وقيل ان بعض المدنين لم يستحسنوا العمل اذ رأوه شيئاً بكنيسة (لـ تابع)

(١) هذا قوله بالحرف في كتابي عن ملك العرب WELLHAUSEN: *Das arabische Reich und sein Sturz* (p. 4) : « In Medina war der Boden für Mohammed vorbereitet durch das Judentum und Christentum ; es gab dort viele Juden und die Stadt lag an der Grenze desienigen Teils von Arabien, der under griechisch-romischen und christlich-aramaischem Einfluss stand »

(٢) ودونك قوله : H. DERENBOURG: *Opuscules d'un Arabisant* (p. 16) : « Le Christianisme comptait en Arabie de nombreux adhérents ; il dominait le Nord par les rois de Hira et de Ghassan, le Centre par Médine, le Sud par les évêchés du Yémen »